(١١)

فتافيت.. وخوازيق.. وعفاريت*

سألته : الأخبار؟

قال: لا شيء. أخبار كل يوم. مفاوضات العراق وإيران متعثرة. كل واحد منهما مصر على رأيه، وإسرائيل مازلت فى وحشيتها مع الفلسطينيين، وشامير عاد إرهابيا كما بدأ. إنه يعتقد أن من حق إسرائيل أن تبيد الفلسطينيين، والأمريكيون فى لعبهم الغريب مع الروس. ريجان يريد أن يختم رياسته ملاكا. والفيضانات فى كل بلاد الدنيا من ثلاثة شهور كنا نموت من قلة المطر، اليوم نموت غرقا من مياه الأمطار فى بنجلاديش وفى الصين والمكسيك. والطائرات تسقط فى كل مكان، والناس يموتون بالمئات.. إلى آخر هذه الأخبار المملة التى يصدعون بها رؤوسنا كل يوم.

– كل هذا ونقول لا شيء؟

– بلى. هذه أمور لا تنتهى يا أخى، لأن الناس يريدونها كذلك. وإلا فقل لى: ألم ينص قرار هيئة الأمم رقم ٥٨٩ على وقوف الحرب بين إيران والعراق على أن تعود الحدود بين البلدين كما كانت قبل الحرب؟ فما معنى الكلام اليوم فى شط العرب، وكيف يقول كل من الجانبين أن من حقه أن يمنع الآخر من دخول شط العرب؟

– لأن كلا منهما يا أخى اقنع شعبه بأنه انتصر فى الحرب.

وكيف يكون هناك انتصار دون كسب؟

– ما ذنبنا نحن يا أخى.. لقد هلكنا من هذه الخلافات والحروب والمطامع. ما ذنبنا والله.

---

* نشرت هذه المقالة فى ١٨ سبتمبر ١٩٨٨م.

– ذنبنا إننا فتافيت. كلنا فتـافيت. أنـا فتفوتـة وأنـت فتفوتـه، وكـل الناس الذين تراهم يروحون ويغدون أمامك فتافيت. والفتافيت هم المساكين الذين يحملون عبء هذه الدنيا.

– لا يا أخى.. أنا لست فتفوتة.

– إذن فأنت فتفوت.

– ولا فتفوت.. أنا دكتور.. أنا طبيب..

– آه.. نسيت يـا أخـى أن أجـرة كشـفك أصبحـت ثلاثـين جنيـهـا. ولا يمكن أن يكون إنسان يتقاضى ثلاثين جنيها كشفا فتفوتـه أو فتفوتـا.. أنت خازوق.

– خازوق ؟ كيف تقول إننى خازوق؟

– يا عزيزى إن الخازوق لا يحس إنه خازوق.. إن الذى يحـس بذلـك هو الذى يدفع الثلاثين جنيها.

– إننى أعالجه بها.

– ليس مؤكدا.. المؤكد الوحيد هو أنك تقبض الجنيـهات وتضيفـها إلى حسابك.. والمريض فى الغالب لا يشفى. لابد أن يذهـب إلى خـازوق آخـر ويدفع ثلاثين جنيها أخرى. إنكم يا أخى لا يمكن أن تكونوا فتافيت. أما نحن فإننا نعتبر أنفسنا سعداء لأننا فتـافيت، نحـن نخـدم الدنيـا ونـأخذ أجرنا العادل. نحن لا ننهب ولا نسرق. نحن لا نظلم ولا ندس أيدينا فى محافظ الآخرين. أن الفتفتة يـا عزيـزى فيـها شـىء مـن خفـة الظـل. إن الفتفوت منا يشعر إنه مسروق منهوب ويجد سعادة فى ذلك. ولولانا نحن الفتافيت لخربت الدنيا. أما أنتم فخوازيق.

– لا تقل إننا خوازيق.

– بل خوازيق ونصف. وهل تظن يا عزيزى أن الخـازوق يحسـن أنـه خازوق؟ أبدا! إن يحس بالخازوق هو الذى يلبسـه ويطلع من عينه.

لقد كنت فى الإسكندرية هذا الصيف، وكنت أجد نفسى أحيانا وسط ناس يقال أنهم أصحاب ملايين، ولكنهم يتصرفون تصرف خوازيق. ليس على أحد منهم منظر فتفوت أى إنسان، وأولادهم مشروعات خوازيق. ملابسهم غالية الثمن. ولكنهم يبدون فيها وكأنهم متسولون. لقد طفت بالشاطئ من المنتزة إلى رأس التين. لم أجد واحدا من أولاده الخوازيق هؤلاء يركب يختا غالبا كالذى يركبه الأغنياء وأولادهم فى مياه نيس، وكان، ومونت كارلو، وشواطئ ميامى، وكاليفورنيا وينافس بعضهم بعضا ويعطون أوربا وأمريكا هيئة الغنى والبطولة والشجاعة والرجولة، لأن خوازيقنا فعلا يملكون المال، ولكنهم فقراء. اقصد أن قلوبهم فقيرة وإنهم خوازيق وأولاد خوازيق. بعضهم يتصرف تصرف أغنياء حقا. يعضهم أنشأ مستشفيات – وبنى مساجد وساهم فى مستشفيات هؤلاء تجدهم دائما متواضعين بسطاء، والواحد منهم يشعر براحة ضمير لأنه استعمل الزكاة فيما شرعها الله له: استعمله فى التخفيف عن آلام المساكين. فى عمل الخير. أما الآخرون فتجدهم متلطمين كالذباب على شواطئ المنتزه والواحد منهم أمامه زجاجة الويسكى أو الجن أو البيرة، لكى يعرف الناس أنه خازوق. وبناتهم خازوقات واحدة منهن كانت تجتهد فى أن تعرض على عيون الخلق ما منحها الله من جمال قليل. إنها تجلس بالمايو وتشرب الويسكى وتنهض وتروح وتجئ فى دلال ثقيل.

إن الفتافيت يا عزيزى هم الذين يبنون مجتمعنا هذا. إنهم مكافحون طيبون يؤمنون بالفضيلة وينفرون من الفساد. أما الخوازيق فلا يهمهم إلا المال الذى فى الجيب. كيف أتى؟ كيف تجمع؟ لا يهم.. المهم أنهم أصحاب عفاريت، أقصد ملايين. واحد منهم كان يركن سيارته المرسيدس فى مكان ممنوع. وأتى الشاويش وأخذه غرامة. وعندما عاد ورأى علامة الغرامة غضب لأنه بصفته خازوقا لا ينبغى أن يدفع غرامات. فذهب إلى الشاويش وشتمه. وواحد منا نحن الفتافيت لم يعجبه هذا الكلام. فتصدى للدفاع عن الشاويش. ودخل فى معركة مع ابن الخازوق وضربه وألقى به

على الأرض وكانت لمة وهيصة وأتى الضابط ووجد أن الحق مع الفتفوتة فانضم إليه وأمر بالقبض على الخازوق وانقلبت الدنيا لأنه لا يجوز القبض على الخوازيق، ولكن الضابط أصر، لأنه كان فتفوتة مثلنا. وفى القسم انضم وكيل النيابة إلى الفتفوتة ولم يحفل لأى وساطة.

لم أر فى الدنيا أثقل من أصحاب الملايين فى بلدنا. إن معظمهم لصوص ولا يستحون، ونصابون لا يخشون.

منفوخون على الفاضى ويفسدون المجتمع. ويرون أنهم سادتنا.

وبعضنا يحاول أن يقوى هذه الفكرة فى رؤوسهم ورؤوسنا، وانظر مثلا إلى مسلسل يعرضونه الآن. إن بطل المسلسل منادى سيارات. ومنادى السيارات فى حقيقته متسول. إن عمله فى موقف السيارات ليس وظيفة فليس له راتب. إن يمد لك يده دائما لأنه متسول لا موظف. لأنه الموظف يتحمل مسئولية. أما منادى السيارات فأى مسئولية يحمل؟ وأنت إذا جرى لسيارتك شىء رأيته يقف كاللوح كأنه لا دخل له فى الموضوع. ولكن الرواية تريد أن تقول أنه بطل. لقد ربى أولاده من حرفة التسول هذه. رباهم واشترى شقة وأصبح فى زمرة الأغنياء، ولكنه ظل يحمل طعامه إلى بيته فى ورق جرائد، وظل يجلس إلى المائدة دون أن يغسل يديه. لا سكين ولا طبق والأكل دائما بالأصابع القذرة. وأولاده واحد منهم طبيب أسنان، وهو لم يشعر بأن أباه متسول إلا عندما رفضت أم البنت أن تزوجه ابنتها. لو لم ترفض السيدة لما أحس أنه ابن متسول. والسيدة على حق لأن ابنة الطبيب لا يجوز أن يتزوج ابن متسول ولكن مؤلف الرواية - وهو دون شك يفكر بعقلية خازوق يقف إلى جانب منادى السيارات ويريد أن يصوره بطلا، معقول هذا يا ناس؟

إننا نحن الفتافيت نرفض ذلك. إننا نبنى الدنيا ولا نحب من يهدمها. من الناحية الأخرى نرى سيدة كانت متزوجة من منادى سيارات وأنجبت

منه أولادا ثلاثة. ثم انحرفت وتاجرت فى الأغذية الفاسدة وكسبت المال وسكنت الفيلا وصار لها الخدم والحشم، وهنا صرخت: أولادى!

إنهم ليسوا أولادك يا سيدتى فإن الأمومة ليست مجرد الإنجاب وأنت لست أما، وليس لك الحق فى أن يكون لك أولاد لا أطباء ولا عفاريت، أنت عدوة من أعداء الفتافيت أنت عدوة من أعداء المجتمع . وأنت لن تخدعينا لا أنت ولا المؤلف الذ يفكر بعقلية المتسول مثلك.

□□□

كان بلدنا هذا – مصر – أسعد بكثير عندما كان أهله كلهم فتافيت يتصرفون على أنهم فتافيت، حتى الباشوات كانوا فتافيت، كان فيهم جهل وعنف، ولكنهم كانوا فى أعماقهم ناسا طيبين ومواطنين صالحين، لم يفسد حالنا إلا عندما دخل مجتمعنا الخوازيق والعفاريت، ونحن من جانبنا نخضع اليوم لعقلية الخوازيق الذين يسرقون وينهبون ويكذبون ويخدعون ويزعمون أنهم ناس محترمون.. فى آخر مرة كنت فى الحجاز كنت فى فندق يسمى القندرة، ورأيت نفسى وسط أربعة رجال ونسوانهم، كلهم خوازيق وعفاريت، أتوا إلى الحجاز لكى يكذبوا على الله سبحانه. كل مال معهم كان مسروقا، وواحد منهم كان يبكى خشية من الله فيما يزعم.

وكل متر أرض يملكونه كان منهوبا، كلهم كانوا تجار سوق سوداء. واحد منهم تولى بالأغلبية السياسية إدارة شركة أقطان. وسرق ونهب، وانتقل من صعلوك إلى شىء لا يصدقه العقل، كان جالسا فى هيئة رجل تقى نادم بين يدى الله. كنت أنظر إليه وأقول:

معقول يا ناس؟ هذا المفلس بالأمس يصبح اليوم شيئا هائلا، يملك عمارة فى الزمالك وحسابات فى أكثر من بنكين؟ من أين أتته هذه الأموال؟ والدولة أين هو منه؟

بعد أن عدنا من الحجاز أقرأ فى الصحف أنه مقدم للمحاكمة يتهمونه بسرقة بضعة ملايين، ويطلبون حبسه، وهو يلجأ إلى ضبع من ضباع المحاماة ويزعم أنه كسب المال بعمله. كيف يا إنسان وأنت كنت من خمسة عشر عاما فتفوته مثلنا تسعى لرزقك؟ إنها السياسة! السياسة حشرتك فى الوظائف الكبرى، وأنت شمرت عن ساعد الشر ولم تذكر الدين أو الأخلاق، ونهبت قدر ما استطعت، وتنعمت واستمتعت، وحسبت نفسك إنسانا عظيما وشخصية لها مكانها، وأنت ترانى انتظر تكسيا فى الطريق فتقف وتقول أتفضل، وأنا لا أتفضل لأننى أولا أعرف أن مالك هذا كله مسروق، ثم إننى أخشى أن يصيبنى الرصاص إذا أنا جلست إلى جوارك لأن أعدائك كثيرون وهم لك بالمرصاد فى كل زاوية، وكلنا نعرف أنك لا شىء، كلنا نعرف إنك خازوق وعفريت، وكل لقمة عيش تدخل جوفك حرام. وكل شربة ماء حرام وكلك خازوق ملعون.

وبعض مفكرينا يؤيدونك ويكتبون مسلسلات يجعلون أبطالها عفاريت مثلك. هذه الأيام نرى مسلسلات بطله إنسان عاطل كل ميزته أنه فيما يزعمون خفيف الظل، وهذا الشيطان يسعى للزواج من بنت طيبة غنية، وغرضه الوحيد الحصول على مالها. الرواية كلها تافهة. وقد كتبت قبل ذلك مائة مرة إنها حكاية البنت الطيبة التى تنسى أنها امرأة فتهمل هيأتها وتنصرف إلى عمل جاد هو دراسة الحشرات. المؤلف لم يختر التخصص فى الحشرات إلا لأنه ظن أن هذا عمل مضحك إذ كيف تتخصص بنت فى دراسة الحشرات؟ المهم أن هذا الثقيل الرذل يحاول أن يخدع البنت وفجأة تنبهها سيدة طيبة إلى أنها بنت جميلة وأنها تستطيع أن تكون فاتنة إذا اعتنت بنفسها، وتعتنى بنفسها وتصبح فاتنة حقا. وصاحبنا تدور من حوله الدنيا. ويشعر أنه سقط فى الحضيض وهو فى الواقع لا يستحق إلا الحضيض فهو إنسان جاهل تافه. لا يعرف إلا الفكاهات السخيفة ويحاول أن يعجب البنت وكان ينبغى إلا يوفق ولكن

المؤلف خازوق. ولهذا فهو يقف إلى جانب الخازوق مثله. والرواية تصبح تمجيدا لإنسان تافه لا يستحق إلا الاحتقار.

هذا ليس تأليفا ولا فكرا أنه نصب واحتيال، ومثل هذا المؤلف كان من الممكن أن يكون فتفوتة طيبة مثلنا، ويخدم المجتمع بفنه، ولكنه لا يريد خدمة المجتمع، أو قل لا يعرف كيف يخدمه.

لأن خدمة المجتمع تضحية وقناعة وفضيلة، ومن العسير جدا أن يكون الإنسان مضحيا وقنوعا وفاضلا. وأنا شخصيا ينهبنى الناس ولا أغضب، ولى عند ناس كثيرين نقود وأطالبهم بها ولا يدفعون ولا أغضب لأننى أعرف أنه ليس من السهل عليهم أن يكونوا فتافيت. وأسهل جدا أن يكونوا خوازيق أو عفاريت، لأن الأمر يتطلب هنا قلة الذمة والنصب والاحتيال. وصدقنى أن ذلك أسهل من التصرف الفاضل الذى يتطلب منك قوة نفس وعزيمة وفضيلة وواحد من هؤلاء أكل علىّ مالا. ثم احتاج إلىّ أن أقوم له بعمل، ووعد أن يدفع مبلغ ثلاثة آلاف جنيه ودفع ألفا. و لأننى رأيت فى العمل خدمة عامة فقد قبلت وقمت بالعمل ودفع ألفا أخرى وأكل الباقى. وصدقنى إننى لم أحزن ولم أغضب وقلت لنفسى أنه مسكين ولا يمكن ألا أن يكون هكذا. ثم أصابته نوبة قلب، ورقد فى الفراش ولم أزره لأنه لا يستحق وانفق فى العلاج فوق العشرة آلاف جنيه، وذهب إلى إنجلترا وكنت هناك فمررت عليه فى المستشفى، وقلت له إننى غير آسف على ما أصابك، فإن الله سبحانه وتعالى له أساليبه فى أن يجعل مثلك يدفع ما عليه، وأنت أنفقت فى مصر وهنا أضعاف ما أكلت منى، فتصنع أنه لا يسمع وسلمت عليه بنفس طيبة ودعوت له بالشفاء من صميم قلبى والله وخرجت، واتصل بى بالتليفون فى الفندق وقال: يا فلان لك عندى ألف جنيه! قلت: لى عندك ألف جنيه من الصفقة الأخيرة. وستمائة قبل ذلك، ولكننى لا أطالبك بشىء، ويكفى إنك ناشر كتب وهذه فى ذاتها فضيلة. قال: أريد أن أبعث إليك بألف جنيه إنجليزى. قلت:

لا داعى لذلك يـا أخـى، لقد عـرف الله سبحانه كيـف يعـاقبك، وهـذا يكفينى. لأننى فى الحقيقة أغنى منك رغم أننى اسكن فـى فنـدق درجـة ثانية وصدقنى أنك فقير رغم كل شىء وكان الله فى عونك على نفسك.

إننا - نحن المفكرين والكتاب والمؤلفين - ننسى أحيانا أننا معلمون. إننا نكتب لكى نسلى الناس، ولكن التسلية ليست خدمـة قوميـة إنـها خـداع ولهذا فإن كتابتنا فى أحيان كثيرة تضر النـاس وتفسـد المجتمـع، وانظر مثلا إلى صور النـاس الذيـن يغتنـون مـن التـهريب ومـن المخـدرات كيـف ينتقلون من الفقر إلى مظهر غريب من الغنى: المكتب الفاخر.. السكرتيرة.. التليفونات والسيارة والخدم ووراء ذلك كلـه رجـل أو امـرأة لا يعـرف أى منهما كيف يرتدى ملابسه، والحكاية تنتهى دائما بأن البوليس يكتشـف السـرقة، والخازوق يدخل السجن، ولكن دخول السجن فـى هـذه الحالـة يصورونه لنا فى صورة زائفـة وكـل الإجـراءات خطـأ، والمؤلـف لا يعـرف القانون ولا إجراءات القانون. إنـه يتظـاهر بأنـه مـع القـانون، ولكنـه فـى الحقيقة يؤذى القانون، ويؤذى الناس. وواحد منهم يقول أن رجلا قبضـوا عليه لمجرد اتهامه بسرقة مال من دولاب، هذا خطـأ طبعـا ولكنـه خطـأ خازوق يريد أن يبدو فى نظرنا أنه فتفوته.

هذا كله فساد وإفساد. ونحن الفتافيت نعرف ذلك جيدا ونقول لأولئك الناس إنكم هلافيت وخوازيق. نحن أيها الناس لسنا فـى أمريكـا، هنـاك تجد االاجرام إجراما حقا.

والمسدس دائما فى اليد، وقتل إنسان أهون من قتل ذبابة، صدقنى أن مؤلفى تلك الروايات الأمريكية أشرف من مؤلفى رواياتنا التى أشرنا إليها، إنهم على الأقل ليسوا منافقين. إنهم هلافيـت وعفـاريت، ولكنـهم ليسـوا منافقين.

○○ يقولون إن بلدنا حافل اليوم باللصوص. معقـول ونحـن مسـئولون عن ذلك لأننا نعامل الخوازيق باحترام. واللص ينبغى أن يعاقب وأنا أرى

أن يده بل رقبته – ينبغي أن تقطع أن القانون الفرنسي الذى نطبقه لم يكتب لنا وهو غير صالح لنا لأن الذى يصلح لنا هو قانون الإسلام.. شريعة الله التي بينها لنا في القرآن وهى شريعة عادلة وجميلة شريعة تخدم الفتافيت مثلى ومثلك اذكروا دائما أن الرئيس مبارك قال في خطابه الأخير في ٩ سبتمبر.

إن الصرخات غير المسئولة سترتد لأصحابها.